

ايليا ابوسايبى

تلميذ الدكتور هكتور عبد النور

لسنا نقصد في كلمتنا هذه تحليلاً جمالياً لشاعرية ابي ماضي او تدويناً لحقبة تعد بحق ، من حيث اصطحاب الحياة فيها وفورانها ، من اخصب العهود انتاجاً في تاريخ ادباء المهجر ، بل في تاريخ الادب العربي الحديث ، وانما تنصرف عنايتنا الى عرض مقتضب لسيرة الشاعر ونتاجه ، يكاد ان يكون موضوعياً في ايجازه وارتباطه باحداث حياته . وفي يقيننا ان هذه العناصر البنائية الاولية مقدمات بدائية ضرورية للدارسين والمحللين الذين يأتون من بعد ، فيستنطقون آثاره ، ويستشفون اسرار قلبه ، ويرودون مجاهل خياله ، مستكشفين انعام اوتاره . وقد كانت ابو ماضي واحداً من فوسان « الرابطة القلمية » ، وعاملاً فعالاً ، الى جانب جبران ونعيمه ، في الثورة على الرجعيين والوقوفين ، فجلا لقرائه صفحات زاخرة بالحياة والالوان والرغشات ، وبرز الشعر العربي من محرفه – بعد طول المران – مروى بندى الابداع ، مغذى بعناصر الحياة والبقاء .

القصيدة كانت فاتحة شهرته في عالم الشعر، انتقل بعدها الى فنون الوطنية والسياسيات التي راجت سوقها آنذاك ، وحررت النفوس الى المطالبة بالحرية والمساواة . شارك في كل نشاط فومي ، وبنوع خاص في استقبال محمد فريد المائد من اوربة ، وفي الحفلة التذكارية التي اقيمت لمصطفى كامل ، وبذلك أثار عليه نقمة السلطة المصرية وغضب الانكليز ، فقرر السفر الى أميركة عام ١٩١١ . ولكنه عرج في طريقه على لبنان لتوديع الاهل وقضاء أشهر الصيف . وفي الايام القليلة التي أمضاها في موطنه تكشفت له وجوه من الحياة الجبلية ما أدر كها في عهد طفولته . فاذا بالمدوات الصغيرة تفرق بين أبناء القرى ، وتنمي روح التنافس بين الاسر والافراد ، وتثير كوامن الاحقاد وتستنفذ قوى الناس في توافه الامور . وقد احتفظت هذه الانطباعات بعد مرور ست وثلاثين سنة على وقوعها . ومن طريقها انه حاول مع رفاق له تمثيل رواية في بكفيا ، فسعت فئة من الخصوم الى تلهم عن رغبتهم ، وعرقلة عملهم . وكان قد نظم قصيدة لتلقى في تلك المناسبة ، وعندما قرأها على الدكتور اسمعدي عفيش – وهو من هواة الشعر ومتذوق الادب الرفيع – طلب منه حذف الأبيات التي تسيء الى الخصوم، غير ان الشيخ ابراهيم المنذر قال له « اقرأ القصيدة ثم شر واركض » . وانتهى الامر بان اقيم المسرح على سطح فرن ، وجلس المخرجون أمامه ، ووقف حول الساحة والد الشاعر وبعض الاصدقاء حراساً لمنع المعارضين من تهديم المسرح او احراقه . وألقى أبياته فقبولت بالاستحسان . وضاق الفتى ذرعاً بأهل القرية ، فكان يفر منهم الى الحقول مصطحباً بنديقية صغيرة وزوادة مؤلفة من الجبن والزيتون والتين المطبوخ ليصطاد العاصفر . وفي الحقول وجد أمامه متسعاً من الوقت لينظم الشعر ، يكتبه حيناً ويرتجله أحياناً . والناس يشكون في مقدرته ويقولون ان ابياته من صنيع شاعر مصري ، لانه لم يدخل مدرسة عالية . ولكن الشيخ المنذر كان يستمع الى ما تولده قريحته ، ويشجعه على المثابرة والاجتهاد، فيطمئن الفتى الى رأي الشيخ ، ويجد في تقريره له خير حافظ على الانتاج .

غادر لبنان في أواخر صيف عام ١٩١١ ، وفي باله الأنصراف التام الى الشؤون التجارية بعد أن تقدمه أخوه الى الولايات المتحدة وأسس له متجرأ ناجحاً . وعزم على تطبيق الأدب الذي لم يشعر له إلا العداوة ، ولم يجن منه

ولد ايليا ابو ماضي في المحيطة بالقرب من بكفيا سنة ١٨٨٩ . وما وعى الا القليل من جمال موطنه – والطبيعة اللبنانية تتجلى في تلك البقعة في أقصى روعتها وتأنقها – بل قضت عليه ملايبات الحياة بهجر لبنان الى مصر وهو في الحادية عشرة من عمره بعد ان اطلع على مبادئ طفيفه من العربية ، التقطها من المدرسة القروية التي تردد عليها ، ومن استاذة ملحم قزاح بنوع خاص ، ولا يزال ذكر المعلم عالماً بمخيلة الشاعر الى الآن بشير في نفسه عالم الطفولة الزاخر بالاحلام والرؤى .

دعاه خاله ، وكان صاحب متجر في القاهرة ، لمساعدته في عمله ، فنشط الى جانبه مدة عشر سنوات ممتياً بضبط حساباته ، وتصريف شؤون تجارته ، وهو في زجة اشغاله لا يتحول عن الدرس والتنقيب ، بل يكب بصبر واناة على المصنفات اللغوية يطالعها ، ويحل رموزها ، ويستوعب قواعدها ، ويستظهر العبارات المنتقاة ، والشعر الفصيح القديم والحديث ، مرتقياً الى علوم المعاني والبيان والعروض ، ثم الى معالجة الشعر بتقليد القصائد التي تقع بين يديه في البحر والقافية كمادة جميع المرغزين في اطوارهم الاولى . وفتحت هذه الثقافة الشخصية امامه آفاقاً جديدة في حلات الادب والفكر والسياسة . وكان الادباء في ذلك الحين يحسون احساساً عميقاً بالرسالة التي يؤدونها في البلاد العربية المتوترة للنهوض . فشاركهم الفتى الناشئ شعورهم ، وتمرس بمسؤوليتهم ، وتردد على حلقاتهم يخوض معهم في احاديث الاصلاح والانقلاب ، مفيداً من هذه اليناث توجيهاً جديداً وآراء حديثة انطبعت في ذهنه ، فبدت آثارها الخيرة في المقل من نتاجه . وكان جو مصر الذي احتواه مدة عشر سنوات مليئاً بالمتناقضات والمفارقات . ينعم فيه المفكرون بحرية مطلقة في هدم السلطنة العثمانية ، وبث الدعوة العربية ، وتكم افواههم اذا طالبوا باستقلال بلادهم ، وتحررهم من السيطرة البريطانية . وأول ما أذيع للشاعر قصيدة اجتماعية تتحدث بلسان فتاة عقد اهاها قرانها بالرغم منها نشرتها جريدة «الاكبرس» الاسبوعية ، ومطلعها :

لي بعل ظنه الناس ابي صدقوني انه غير أي

ومنها : إنا الغصن إذا هب الهوا مال للاغصان لا للحطب

ويبدو من الذكريات التي انطبعت في ذهن الشاعر عن هذا الطور من حياته ورددها على مسامع المحبين به عند نزوله لبنان عام ١٩٤٨ ان هذه

فلما واحداً . ولكن الشعر عاد الى مرادته في مهجره بلسان اصحاب الصحف والمجلات ، فلبى رجاءهم ، وبدأ يتخفهم من وقت إلى آخر بمقطوعات من شعره ، تحمل اليهم أطياب الطبيعة في لبنان وأشواك السياسة فيه ، بدأها بالقصيدة التي ودع بها موطنه وجعل مطلعها :

وحكومة ما ان تزحزح أحقما
عن رأسها حتى تولي أحقما

وتابع جهده في الحقن في الادبي والتجاري ، فقال منها نصيباً وافراً ، أمن له مكانة مرموقة في عيون الجالية العربية واللبنانية بنوع خاص ، الى أن اشتد تعلقه بالقلم فودع تجارته وتمرغ للصحافة والشعر . وفي عام ١٩١٦ استقر نهائياً في مدينة نيويورك ، وتوثقت علاقته بادباء العربية المشهورين امثال جبران ونعيمة وكاتسفليس وعريضة ، الفرسان الذين أنشأوا « الرابطة القلمية » من بعد . وفي ذلك الحين تزوج من ابنة نجيب دياب صاحب جريدة « مرآة الغرب » ، وعاون حاه في كتابتها ، وأصبح رئيس تحريرها الى ان أسس جريدة « السميع » في عام ١٩٢٩ ، وما يزال يصدرها إلى اليوم .

نشر ابو ماضي قصائده في كثير من جرائد الوطن والمهجر امثال « زحلة الفتاة » ، و « السائح » ، و « مرآة الغرب » ، و « السميع » ، وفي « مجموعة الرابطة القلمية » ، التي صدرت عام ١٩٢١ و حاملة خمس قصائد من نتاجه . وطبع الى الآن اربع مجموعات شعرية : الاولى عام ١٩١١ في القاهرة ، والثانية في نيويورك عام ١٩١٩ والثالثة في نيويورك ايضاً عام ١٩٢٧ حاملة اسم « الجداول » اخرجتها مطابع « مرآة الغرب » ، والرابعة « الحائل » ، في طبعتين : اميركية رأت النور اثناء الحرب العالمية الثانية ، ولبنانية صدرت في تشرين الثاني عام ١٩٤٨ ، اخرجتها مكتبة صادر البيروتية ، وصادف ظهورها زيارة الشاعر مسقط رأسه . وبين هذه المجموعات تفاوت عظيم من حيث الاسلوب والمعاني والفنون والالوان والاختلاف . ويتجلى الاختلاف باوضح صوره بين الاولى والرابعة فكأنهما من صنع اديبين ينتميان الى عصرين متباعدين . ولا شك ان شاعرية ايليا ابي ماضي بدأت تبرز بجلاء في « الجداول » ، لتكتمل وتتألق في « الحائل » ، واما الديوانان الاول والثاني فهما محاولتان فاشلتان في بعض القصائد ، ناجحتان في البعض الآخر . ولا يتيسر ، بأي حال من الاحوال ، الحكم على صاحبهما حكماً نهائياً بالاعتماد عليهما . وقد اختلفت هاتان المجموعتان من السوق الكنتية ، ولا اثر لهما في بعض المكتبات العامة ، كأن يبدأ سحرية سعت في طمرهما وموارتهما عن عيون الدارسين . وفي تحليل الاثرين الاخيرين كفاية لرسم صورة واضحة للشاعر في حسناته وسيئاته ، وقوته وضعفه ، وهما ابنان صريحان له « لا يتهرب منهما ، ومن نسبهما اليه ، بل يعتر بهما بحق كما يعتر والدبولدين حبيبين . وما

تجدد الاشارة اليه ان المجموعة الثانية قدم لها النابغة جبران خليل جبران بفصل طريف في التعريف بالشعر والشاعر ، قال فيه عن صاحب الديوان : « .. وايليا أبو ماضي شاعر ، وفي ديوانه هذا سلام بين المنظور ، وحبال تربط مظاهر الحياة بخفاياها ، وكؤوس مملوءة بتلك الحجرة التي ان لم ترسها تظل ظمآن حتى تمل الالهة البشر فتغمرهم ثانية بالطوفان » .

*

اما ديوان الجداول ١ فقد لاقى منذ صدوره كثيراً من الاستحسان . اكب عليه الفتيان في مختلف الاقطار العربية تريداً وحفظاً ، وعرض له بغض النقاد بالدرس مفئدين ما فيه من مواطن الضعف ، عارضين ما يحويه من متع فنية تفرق القارئ في عالم مسحور . واجمع الكل على انه يحتوي خطرات رفيعة من الادب العالمي ، وعلى ان في صدر صاحبه معدناً ثميناً لو ثابر على صقله لكان اقرب الشعراء الى الكمال .

لا شك في ان الدكتور طه حسين كان اشد النقاد عنفاً في درس « الجداول » ، تناوله في « حديث الاربعاء » تناولاً عنيفاً قاصراً هم على تتبع الاخطاء والمفوات ، مشيراً الى ما فيه من الحسنات في بعض المقاطع وكان هذه خطوط نور ضئيل ناشزة في بحر من الظلمات . غير ان المآخذ التي اشار اليها هي جد هامة ، يحار في تأويلها كثير من المعجبين بالشاعر . وذلك ان الناقد حكم على لغة الشاعر بالرداءة ، او انها تقارب الرداءة احياناً حتى توشك ان توغل فيها ايغالاً ، ويأسف كل الأسف لهذا الوهن في الصياغة « لان الشاعر مجيد حقاً ، خصب الذهن ، نافذ البصيرة ، ذكي القلب ، متقن الفهم لما يريد ان يقول ، موفق الى اجادة التصوير لما يجب ان يصور ، فكان خاتماً ان تواتبه مع هذه الحلال نعمة صافية عذبة تعينه على اظهار ما في شعره من قوة وروعة وجمال ليس الى الشك فيها من سبيل ٢ » .

وخلاصة المآخذ التي يقررها الناقد :

- ١ - التورط في المعاني الفاسدة التي لا تستقيم لاستحالتها .
- ٢ - فقدان الحاسة الموسيقية في اوزانه وقوافيه .
- ٣ - الوقوع في اخطاء نحوية معيبة ، ولا سيما في قصيدته « الاشباح الثلاثة » ، عندما يرفع الافعال المضارعة الواقعة في جواب

(١) اعيد طبع هذا الديوان مرتين في النجف سنة ١٩٢٧ ، بعد ان اضيف اليه بعض التعديلات .

(٢) طه حسين ، حديث الاربعاء ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ .

الامر ليستقيم الوزن. ومع ذلك فهو يقضي بان الشاعر على هذا كله مصحح لمعانيه ، محقق لها ، يكاد لا يفسدها او يخطيء فيها . وابتكاره في المعاني التي اشتمل عليها هذا الديوان قليل جداً حتى يكاد لا يحس ، ولكن شخصيته قوية ، فهو يتناول المعاني والاعراض التي سبقه اليها الشعراء المتشائمون والمسرفون في الشك من القدماء والمحدثين فينفخ فيها من روحه القوي ، ويكاد يفرض شخصيته فرضاً ١ . وينتهي بإبداء اعجاب به بالقصيدة التي ختم بها الشاعر مجموعته بعنوان « الطلاسم » ، فيرى انها ابلغ واقوى ما في المجموعة من حيث المعنى .

والواقع ان صاحب « حديث الاربعاء » قد تتبع مواطن الضعف بغيره مذهة ، ومر بمطرح الجمال مروراً عابراً ، فرجحت في ميزانه الاولى على الثانية . في حين ان الشاعر قد سار في « الجداول » اشواطاً بعيدة نحو الابداع المعجز . سلس أسلوبه ، ورقت لفظته ، وتهدبت فكرته ، واتضحت بعد غموضها في المجموعتين السابقتين ، وهجر المعلقة المملة ليركز معانيه في مقاطع صغيرة تؤديها على خير وجه ، وتبرزها بأروع ثوب ، وقد اطال نوع الافكار ، وعدد القافية ، وتفنن في الجرس ، وجزأ البحور ، وبسط العبارة ، فاستولت على انتباه القارئ ، ونقلته من عالم انف الى آفاق سحرية . ومرد الامر انه افاد تجديداً وانطلاقاً في جو « الرابطة القلمية » . وكان لجاورته جبران ونعيمه ورفاقها أثر بين في الحواطر العميقة التي زخرت بها قصائده ، ولكنه مع هذا لم يستسلم لتيار الصوفية ،

ولم يفرق في بحر الرومانطيقية ، وعوالم الحلولية ، وشطحات الانجذاب ، وانما ظل متمسكا ببعض مبادئه الاساسية ، لا يسرف في ذرف الدموع ، ولا يتلاشى في وحدة الوجود ، ولا ينتهي الى ذلك الايثار الذي يدفعه الى إفساء نفسه في سبيل اي كائن آخر ، ولا يقف من الانسانية موقف « النبي » الذي يكشف حجب المستقبل ، او يعتقد

(١) طه حسين ، حديث الاربعاء

ص ٢٤٣ .

اسلوب التوراة ، ويستقي من ينبوعها ، فيقرر حقائق وعقائد ، ويضع نظاماً للسلوك والاخلاق . وانما ظل في الجداول ، وفي خضم الآراء التي تدرستها الرابطة ، مؤمناً بواقعية الحياة التي يحياها على الارض ، متردداً بين الايمان والكفر بالعالم الثاني ، شاكاً في كل ما انتهى اليه الناس من نتائج ، ملقياً في كل آن ، وفي كل سبيل ، اسئلة محيرة تعصف بالعقل وتوهن قواه ، وتبدي له عجزه عن ادراك الاسباب البعيدة لكثير من قضايا الحياة . لهذا لم يكن جبران ونعيمه ، على الرغم من الوشائج الفنية التي ربطتهما بالشاعر ، واعتناق الثلاثة مذهباً واحداً في ضرورة التجديد والقضاء على الاساليب اللفظية والمعنوية المتحجرة المتوارثة ، ينظران اليه نظرهما الى رفيق مؤمن بمحصلها الفلسفي ، وانجذابهما الماورائي . وبما لا شك فيه ايضاً ان حرية المعتقد كانت شرطاً اساسياً في الرابطة ، لا ضغط ولا اكراه ، وانما هناك احترام متبادل ومناقشة حرة تنكشف في النهاية عن تعيين المواقف وتحديد المعتقدات الفردية المتباينة. نجد اثر هذا الانطلاق الفني والفكري في المقدمتين اللتين صاغهما جبران ونعيمه للديوان الثاني وللجداول . وفي الاخير يقول نعيمه : « .. ولا يندر ان اجد لذة حتى في قصيدة لاتأثف مع اهوائي ومنازعي ، كقصيدة « بردى ياسحب » ، لاني ، وان كنت انكر على نفسي ان تقول :

كل نجم لا اهتداء به لا ابالي لاح او غربا

لا انكره على ابي ماضي ، بل اعجب بقوة بيانه لمعتقده اذا كان ذلك ما يعتقد » .

والثابت ان ايليا ابا ماضي

من عالم ، وجبران من عالم آخر . الاول خليط من التشاؤم والتفاؤل ، شاك لا يؤمن الا بوحي عقله . والثاني ، وان تعالت من بعض مقاطعه غمغيات السودلوية والشك ، وغلبت الظلال القائمة على الواحه الفنية ، يضع الحلول للقضايا النفسية واللاهوتية والطبيعية ويستدل بهدي روحه المُنحجة الى تأويل كل مظهر من مظاهر الكون . في مدرسة جبران سيول

مراجع لدراسة ايليا ابي ماضي :

- ★ المقتطف : عدد يونيو ١٩٢٩ ، مجلد ٧٥ ، ص ١١٠ وما بعدها .
- ★ درس عن « الجداول » في المقتطف : مجلد ٧١ ، نوفمبر ١٩٢٧ ، صفحة ٣٤٥ وما بعدها ، وفي الهلال : مجلد ٣٦ ، نوفمبر ١٩٢٧ ، ص ١١٩ .
- ★ طه حسين : حديث الاربعاء ، ج ٣ ، ص ٢٢٠-٢٢٧ ، القاهرة دار المعارف .
- ★ نجدة فتحي صفوة : ايليا ابوماضي والحركة الأدبية في المهجر ، بغداد ١٩٤٥ (مقدمة بقلم روفائيل بطي) .
- ★ أحاديث أدلى بها الشاعر الى بعض الصحفيين بمناسبة زيارته لبنان لحضور مؤتمر الاونيسكو : « المكشوف » عدد ٤٥٠ ، ١٧ تشرين الثاني ١٩٤٨ ، « التلغراف » عدد الاثنين في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٨)
- ★ مقدمات الدواوين .

Leaders in contemporary Arabic Literature, by Tahir Khemiri and professor Dr.D. Kampffmeyer London 1930.

من الدموع تذرف اعتباطاً وارتجالاً ، في حين ان شاعرنا يجبس عبراته ويثور على النواحين في لبنان وغير لبنان ويرى كلاً منهم خنساء ولا صخر ، وكلاً أرميا ولا اورشليم.. حتى صار الصباح لا يطلع الا وحواشيه مبللة بالدموع ، وصار الليل لا ينسدل الا لكي تتجاوب في آفاقه اصوات الناديين . فلا نطالع قصيدة او منظومة إلا وقفنا على الدموع الحرى في صدورها واعجازها.. ويلق صاحب «السمير» في احدى مقالاته الثرية على هذه الحالة التي آل اليها الشعر العربي عامة واللبناني خاصة ، فيقول : « هذا شاعر يأمر قلبه ان يتفرق شظايا لأنها أعرضت عنه ... من هي ؟ لا أحد يعلم ... ولا الشاكي نفسه يعلم . ولكنه سمع غيره ينوح فراح ، وامتدح بعضهم من بكاء امرىء القيس في الأطلال ، ونواح موسيه في لياليه فاستخرط في البكاء . وهذا آخر يرفع عقيرته بأنه كاره للحياة ، ماقت للوجود ، نام على الأرض والسماء . فاذا قرأته ساورك الجزع عليه ، وأسفقت ان يكون كتب قصيدته وانتحر ، ولكنك لا تلبث ان تقرأ له غيرها ، وغيرها ، وكأها من هذا النمط ١ » .

تشاؤمه في « الجداول » تشاؤم معتدل . مصدره مايشاهده من شقاء الفضائل ، ونعيم الرذائل ، وهذا التفاوت في المقامات بين الناس ، القائم على أسس فاسدة ، وهذا القدر الذي يسوق للمرء غير ما يستحقه ، فيشقيه ويعذبه ويذيقه ضروب الحرمان ، وهذا الانسان الذي تكبله الرغبات بقيودها ، فيشتهي منها القصي المستحيل حتى اذا بلغه كرهه وقلاه ، وهذا الكذب المرتدي ثياب الصدق والصدقة ، والقبح المتخفي في حلال الجمال . يدفعه هذا التشاؤم الى أثره هدامة ، والى احتجاز المذات لنفسه ، والاستهانة بالناس أجمعين كالطفل الذي يقبض بكلتا يديه على كل ما يقع في متناوله ، ليتفرد به دون الآخرين . وترشح نفسه بهذه المعاني في قصيدته « برّدي يا سحب » ، حيث يقول :

كل نجم لا اهتداء به لا أبالي لاح أو غربا
كل نهر لا ارتواء به لا أبالي سال او نضبا
استقني الصبء ان حضرت ثم صف لي الكأس والحبيا
ليس يرويني مقالك لي انها العقيان منسكبا
ولكنه لا يطيل المكث في هذه الدائرة الضيقة ، ولا يتركز

(١) السمير ، عدد اول تشرين الثاني ، سنة ١٩٣١ ، ص ٦٢٦-٦٢٩ .

نظره في هذه العيوب البشرية ، وانما ينتقل الى آفاق أرحب ، فيشاهد ألواناً فاتنة من النفوس ، وصوراً رائعة من الجمال ، ويرى ان الأخذ والأثرة والانكماش ليست ناموساً راسخاً في النفوس ، وانما هناك من يحس بارفع العواطف وأسماها وأبعدها عن الأنانية ، ومن يفضل العطاء على الأخذ ، ويشاهد الطبيعة التي لا تبخل في التضحية ، تتدفق خيراتها على الانسان ، ثم تنقلص على ذاتها حيناً ليختمر جنينها زمناً ما ، وتعود فتفيض به زهراً وجنىً وعشياً ونوراً ولوناً . فبذل النفس من أسرار الحياة ، ومن الجهل بها البخل بئارنا لأننا نكون قد تنكرنا لصميم وجودنا ، ومن الحمق ان تقلد التينة التي آلمها ان تورق وتزهر وتثمر وتفيء ، فتكون مصدر خير للطير والانسان ولا تنفع بما تعطيه ، فأثرت الانكماش على نفسها ، مفصلة ظلها على مقدار حجمها ، موقفة تتاجها في عروقها ، فعندما أقبل الربيع وهي غاربة كوتد في الأرض ، اجتثها صاحب البستان ليعث بها الى النار ١ .

تنطلق نفسه الضاحكة على سجيته في كثير من قصائده ، حيث يدعو من يجب الى التمتع بالحياة قبل الغروب ، والى التخلي من خربير الجداول ، وأريج الأزهار ، والتمتع بمرأى الشهب في الأفلاك قبل ان تغيب هذه المشاهد الرائعة عن عيوننا الترابية :

لتكن حياتك كلها املاً جميلاً طيباً
ولتملأ الأحلام نفسك في الكهولة والصبى ..

يستقبل الحياة بخيرها وشرها ، ويحصرها في الايام التي يعيشها على الأرض . وأما ما وراءها من عالم فهو من حيز الضباب والعماء . فمن العجز ان نضيع ما في يدنا ولا نتمتع به الى أقصى حد ، وألا نتذوق ثمرات الجمال والخير ، وألا نملأ قلوبنا غبطة ونشوة . وأما القضايا الفلسفية التي أقلقت المفكرين والشعراء من اقدم العصور ، فانه يسوقها في « الطلاسم » مقفياً عليها بعبارة : « لست أدري » ، كأننا به يعهد الى سواه بامر تحليلها وتمحيصها ، واكتشاف اسبابها ومسبباتها ، وجلاء غامضها ، كقضية مصدر الحياة ، وحرية الانسان ، وسر الموت ٢ . فله ان ينعم بما يتيسر له من افاويق العيش ، وعلى الحكماء ان

(١) راجع قصيدة « التينة الجمقاء » ، الجداول ، ص ٢٨ .

(٢) يرى في رغبة الانسان في البقاء برهانا على كونه غير واثق من الخلود . يجاهد للبقاء بالكتابة والتصوير والنحت والموسيقى والفنون الاخرى لان صوتاً خفياً يهيب به دائماً انه للزوال والتلاشي .

يفنوا أيامهم في حل طلاسه .

والخلاصة ان الشاعر الذي نطالعه في « الجداول » يختلف عن الذي نقرأه في الديوانين الاول والثاني . صفت ديابجته حتى قاربت الاستقرار ، وانجحت خواطره حتى تركزت في قوالها الفنية ، واصبح شاعراً انسانياً ، بعد ان تقيد بالتقاليد الشعرية المتوارثة ، وانتهى الى الاعتقاد بان الاديب المطبوع لا يقلد ، بل يخترع ويبتدع ويستقي من منابع الحياة نفسها الماهمه . وهكذا نقلت من اسار الماضي ، في عالم جديدة عامرة بالاخيلة المولدة ، والخواطر الابكار .

*

... ثم استقرت في ذهنه فكرة الفناء بعد الموت ، فلا يؤمن الا بالهنيمات الدنيوية . يرى نفسه اغنية من الاغاني ، قد تطرب لها اذن ، وتمجها اخرى ، وعطراً يلذه انف ، ويكرهه آخر ، او هو اقحوانة تتحول عسلأ اذا امتصتها النحلة ، وتعمى من حسنها وزينتها اذا سطت عليها الديدان . هو غيث كريم اذا صادف حقلاً ازكى فيه العشب والشجر ، واذا نزل الزمال ترشفته الارض اليباب . فيتمنى على قارئه ان يكون الوجه الجميل في هذه التشابيه ، لان ثواني معدودة يعيشها في قلب واع مدرك للجمال هي في نظره خير من الف عام في حياة رتيبة

بهذه الفكرة الجميلة يستهل مجموعة « الحائل » ، وهي ضمة من القصائد نشرتها الجرائد والمجلات في اوقات مختلفة ، وجمعها وطبعها عام ١٩٤٠ ، ثم اعيد نشرها مرة ثانية في بيروت . تتميز الاولى بالاخراج الأنيق ، والورق النفيس ، غير ان الطبعة البيروتية منقحة ، خلوت من الهفوات التي شوهدت بعض محاسن الاولى .

نحن واجدون فيها كثيراً من عناصر « الجداول » ، بعد ان أدت بواعث عديدة الى نضجها واختيارها . فالشاعر ما يزال على عقيدته في سمو الفن ، ورفعة رسالته ، يفتتح مجموعته بقصيدة « الشاعر والملاك الجائر » التي تتركز فيها فكرة خلود الأدب الحق ، وزوال ما عداه من أعراض الحياة . تمثل في حبكتها الروائية سلطاناً جباراً ينهم باسباب الرفاهية والمجد ، يطالب من شاعر بائس ان يتغنى ببأسه ، ويسهب في تبيان قوته ، وامتداد سطوته ، فتبادر الحقيقة لسان الشاعر فيأبى الاستخذاء له ، فيستخدم الملك غضباً ، ويأمر بقطع رأسه . ثم يدرك الموت صاحب التاج ، فيضم القبر أسمال الشاعر المسكين الى حلال الملك العظيم ، ويتساويان في رقدة العدم الأبدية . غير ان ذكر الفنان

يظل خالداً على مدى الأجيال ، وتطوي الأيام سيرة العاتي الجبار . وفي هذه القصيدة براعة وخلق يستوعبان الانتباه ويتمثلان في تنويع القوافي والأوزان والاهتداء الى الكلم الموسيقية ، بحيث تبدو في مجملها سنفونية متعددة الأنغام .

في « الحائل » ظاهرة لا نجدتها في « الجداول » ، وهي سوق الشاعر قصائد مناسبات عديدة الى جانب المبتكر . وهذا لون من الشعر كان قد أهمله إهمالاً تاماً في المجموعة السابقة ، فعاد اليه هنا وأسرف فيه إسرافاً كبيراً . ولعل الباعث على احتفاله بهذه المقاطع التقليدية انها تحوي ، بالاضافة الى الاطراء والتفجع ، نصيباً وافراً من الابداع الشعري والمعاني المولدة . ولهذا أسف ان تضعف فأبقاها في مجموعته الجديدة . وفيها ظاهرة ثانية جديدة هي انبعاث الحنين الوطني في قلبه ، فقد عاد الى التلفت الى الراء عبر البحار ، واستيقظت نفسه الهاجعة على ذكريات حارة توحى اليه قصائد من عيون تلججه . وتملمت لبنانيته ناقلة اليه في أعوام الهرم العطر الذي ما نشقه منذ ثلاثين عاماً ، والأنوار والألوان التي ما مرّغ بها عينيه . عصف الوجد بهذا الوتر الجديد فتغنى بروعة لبنان في امسيات صيفه ، وفي ثلوج شتائه ، وفي قبة المرصعة بالنجوم ، وفي صباياه الضاحكات المرجسات في الحقول . فهو في خيال الشاعر النعيم الذي وعد به المتقون ، وهو ارض الميعاد التي يحلم بالعودة اليها بعد طول المطاف :

وطني ستبقى الارض عندي كلها حتى اعود اليك ارض التيه .
وتجد النزعتان الفينيقية والعربية اثرأ لهما في قصيدتي « شبح » و « فلسطين » ، كأنه قد عاد يتحسس ، رغم طول الغياب ، العواطف التي تثير الجماعات اللبنانية المعاصرة . وفي « الحائل » ترسخ ارأوه الفلسفية وتفتتق بعد ان تبوعت في المجموعة السابقة . وينثر علامات الاستفهام شمالاً ويميناً دون ان يردّ جواباً ، وينتهي الى نوع من الاستقرار السليبي يتلخص بان مهزلة الحياة آخرتها ككل المهازل : ستار يسدل على فصلها الاخير ، فتترك دويأ في الاذان ، واشباحاً في العيون ، ثم تتلاشى شيئاً فشيئاً الى ان يحمد العدم اصداءها .

جور عبد النور

(١) امثال القصيدة التي ألقاها في المأدبة التكريمية على شرف المنسوب البطريركي المطران تيودوسيوس ابو رجيبي في بروكن ، والقصيدة المنظومة في حفلة تكريم سامي الشوا ، والقصيدة التي ألقاها بمناسبة الحفلة التذكارية لموسى الحديني ، والقصيدة التي رثى بها عبدالله البستاني ، والقصيدة التي تغنى بها في مهرجان أقامته لجنة مستشفى تل شيعا في مدينة دزوت النج ...